في رحاب الإعجاز اللغوي للنظم القرآني، المستوى الصوتي أنموذجا

د.حورية مدّان، أستاذة محاضرة (أ)

جامعة يحي فارس، المدية .

تاريخ الاستلام: 2019/05/13 تاريخ القبول:2020/07/26

ملخص:

تبيّن للعالم بما لا يدع مجالا للشك، أنّ اللغة العربية باقية بقاء القرآن الكريم، محفوظة بحفظه، منتشرة على لسان كل معتنق للإسلام، عربي أو أعجمي،مستمرّة في عطائها، مسايرة للركب الحضاري ، مهما تسارع، محتضنة للثورات المعرفية والتكنولوجية الأكثر دقة واختصاصا، فهي لغة العلم والمعرفة، بشهادة علماء العرب والغرب، وإن لاح التأخر والضعف فمن أهلها وليس منها. وكيف لا تكون كذلك، وقد جمع القرآن شتاتها، وقرّب مختلفها، ومثلها في أرقى الأساليب وأكثرها تنوّعا، وأدقها دلالة، فكانت نموذجا يُحتذى من قبل أهل الفصاحة، وأساطين البلاغة؟

و هل يعقل أن تسع آي القرآن، وكلام الله عزّ وجلّ، وتحيط بالمعاني الإلهية، وتعجز عن التعبير عن كلام البشر؟

كنوزها لا تزال دفينة، تنتظر من ينفض عنها الغبار، وجهود العلماء المخلصين، من عرب وغيرهم، لا تزال متواصلة، تكشف عن مواطن الإعجاز القرآني ،

لغويا وبيانيا، دلاليا وعلميا، ولا يزال الموضوع حقلا خصبا لإعمال الفكر، والبحث والدراسة .

هو موضوع هذه الورقة البحثية الموسومة بـ (**في رحاب الإعجاز اللغوي للنظم القرآني، المستوى الصوتي أنموذجا**) والتي تعالج بعض أوجه الإعجاز اللغوي القرآني في أوّل مستويات التحليل اللساني، وهو المستوى الصوتي.

الكلمات المفتاحية:

النظم القرآني ; الإعجاز اللغوي ; المستوى الصوتي ; الإيقاع ; الفاصلة.

Abstract :

Both Muslims and non-Muslims agree when hearing the Qur'aan that it has a great influence and a strong influence in arousing feelings, and alerting the mind to what it hears with the faith of its divine origin.

The reason is due to the fact that Arabic is the most eloquent and fluent language in the world, and the language of the Qur'an in particular represents the Arabic language at its highest level.

Its Miracle includes all linguistic aspects: phonetic, syntax, rhetoric, style, semantic and others. Although it was not different from the patterns of Arab discourse, it remains incomparable and inimitable.

This study will focus on discussing the characteristics of the Qur'anic text and its meanings, especially in the phonetic level.

الموضوع:

انطلقت أغلب الدراسات اللغوية من قراءة النص القرآني، وتدبّر أساليبه، وتمعّن ألفاظه وتراكيبه، وفهم معانيه، وارتكزت البحوث والمؤلفات على كشف مواطن الإعجاز فيه، إعجازا تبيّن منذ بدايته مع عجز أهل اللغة السليقية وأرباب الفصاحة والبلاغة، للإتيان بمثل آية من آياته، وتأكّد هذا الإعجاز مع مرّ العصور، فلم يسع أحدا من أعداء الإسلام، والمشركين، أن يجد فيه ثغرة لغوية أو علمية للقول ببطلانه، بل وعلى العكس من ذلك، يتضح مع تحليل النص القرآني في ضوء العلوم الحديثة بأن ما جاء فيه من أخبار ومعلومات علمية وطبيعية دقيقة لا يمكن أن تصدر عن فكر إنساني في زمن نزوله، وتتأكد ألوهية النص، وكونه كلام الله ﷻ.

وهذا الأمر شغل الكثير من العلماء، بمن فيهم مفكرو الغرب المنصفون الذين نذكر منهم المفكرة الباحثة **ديبورا بوتر**[1] القائلة: «كيف استطاع محمد ﷺ الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل»[2].

وفي المعنى نفسه يقول المستشرق الفرنسي **اتيين دينيه** (1861-1929م): «إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه يحدث مثل هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فما مفعوله في عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟ لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمروا فيه، أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد " ﷺ" ذلك الأمي الذي لم ينل حظا من المعرفة؟ كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات»[3].

فالأمر إذن لا يترك مجالا للشك، هو كلام الله بدليل ما أكده العلم الحديث من صحة ما جاء فيه من حقائق علمية وظواهر طبيعية وقضايا تاريخية، وهو كلام الله بدليل إعجازه البياني واللغوي الذي أكده الدرس اللساني الحديث بتحليله لمستوياته اللغوية، وكشفه عن دقة لفظه، وحسن تركيبه، وروعة تصويره ، وهو كلام الله بدليل أخذه بشغاف القلوب، وتأثيره في النفوس الأكثر قساوة وانغلاقا، فتهتز الأعماق، وتتفتح لنور الهداية بمجرّد ما تطرق آياته مسامعها.

يقول المستشرق البريطاني **روم لاندو (1899-1974م)** في الموضوع: « إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيرا ما يخلف في نفس المرء تأثيرا بليغا، لقد أريد بالقرآن أن يتلى بصوت جهير، ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلا لكي يحكم

عليه حكما عادلا ويقدره حق قدره، وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزا لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله» [4].

وفعلا، ثبت أنّ للقرآن الكريم تأثير كبير في الملائكة والجن والإنس، وحتى في أشدّ المخلوقات غلظة، وصلابة وقساوة: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر/21].

ويذكر التاريخ أنّ المشركين كانوا ينبهرون بسماع القرآن الكريم، وحتى رؤساهم كانوا يصغون إليه خيفة و« أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ -، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له ،حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ثم تفرقوا. »[5].فهذه الحادثة تدلّ على الإعجاز القرآني الفريد، إذ يخلص إلى القلب، وينشرح له

الصدر، وترتاح له النفس بمجرّد ما يقرع السمع. ومنعا لهذا الأثر البليغ، وخوفا من سلطانه على القلوب، كان كفار قريش يصدّون أولياءهم عن سماعه ، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[فصلت/26].

وأثره في الجنّ لا يقلّ عن أثره في الإنس ، ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**﴾ [الجنّ/1] ، فالإنصات إلى القرآن الكريم سبيل الإيمان، والخشوع، وأوّل الخطوات نحو الهدى والتقوى.

والأدلة التاريخية، والنصوص القرآنية كثيرة في توضيح مظاهر تأثير القرآن الكريم سواء على الإنس أو الجن، على المشركين أو المؤمنين، وعلى الرسل أو الملائكة.

ولنا أن نتساءل عن سرّ هذا الأثر الصوتي -السمعي البالغ ، ما مكمنه؟ وما سرّه؟ وما وجوه الإعجاز فيه؟

يدلّ قول الله ﷻ: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء: 106] على أنّ الأثر القرآني أثر صوتي – سمعي في أصله.فالأطفال كثيرا ما يتجاوبون لسماعه بالسكوت بعد البكاء، والنوم بعد القلق، رغم أنّهم لم يرقوا إلى فهم دلالاته. كما ثبت أنّ الكثير ممّن لا ينطقون بالعربية، ولا يعونها ، يتأثّرون به ، ويسترعي انتباههم، ويستحوذ على إحساسهم، فيقرّون بجماله وروعته.

ثمّ إنّ تعاليم الله تعالى في الموضوع، ترتبط أساسا بالفعلين: **(اقْرَؤُوا) و(اسْتَمِعُوا).** وبين أثري القراءة والاستماع تنجذب النفوس نحو العلياء، وتنشرح الصدور، وتتضح الرؤى، وتزول الحواجز، فتسري الهداية مسرى الدم في العروق، وتخشع القلوب وتبكي العيون.

« قال رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ، قال: قلتُ أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال فقرأت النساء حتى إذا بلغت:**(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) [سورة النساء/ آية 41]** قال لي: كفّ أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان»[6] .

ينتشر الصوت في الهواء على شكل موجات تميّزها صفات بعينها .وحين تلتقط الأذن هذه الذبذبات، يتمّ تحويلها إلى سيالات عصبية ليفسِّرها الدماغ. وبين النطق والاستماع، يحدث الأثر.

إنّ التنسيق والتتابع المنسجم في تناغم الأصوات اللغوية القرآنية عجيب ومعجز، لأنّ الحروف هي الحروف، والكلمات هي الكلمات، والقواعد اللغوية في نظام اللغة العربية هي القواعد، فما الذي خصّ النص القرآني بهذه الميزة المعجزة، حتى يأسر القلوب، ويشغل العقول؟

بداية ، نؤكد أنّ الإنسان كلما ازداد علما ورقيا وكلما تطوّرت مدركاته ودقّت معارفه، اِزداد إيمانا بالله، وبكلام الله ممثلا في القرآن الكريم، ويؤكد هذا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر:28] .

وإذا اِلتفتنا إلى القضايا اللغوية، على جميع مستويات التحليل اللساني، والمباحث الدلالية بمختلف موضوعاتها، فإنّنا نجدها قد عرفت تطوّرات كبيرة في ضوء مستجدّات العلوم، والمعارف، لغوية وأدبية، ممّا أتاح قراءة النص القرآني بدقة أكبر، وتمعّن أشدّ، وتعمّق لطرق نظمه، وتنوّع أساليبه، ووجوه تراكيبه، وعمق معانيه، الأمر الذي كشف عن المزيد من مواطن الإعجاز فيه، وأثبت أنّه كلام الله الثابت، المعجز ببيانه ولغته.

وإذا كانت مادّة الدلالة اللِّسانية هي الصّوت، فإنّ المستوى الصوتي يتأسس عليه بقية المستويات.وقد تخيّرنا دراسة الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، لأنّ محورية الأثر القرآني، كما لاحظنا، واقع بين النطق والسمع، بين القراءة والإنصات. ولا يخفى ما للتلاوة والتجويد من تأثير في النفوس، وما لحسن تخريج الأصوات اللغوية من أهمية في الأخذ بالألباب.

وقد أولى علماء العرب الدراسة الصوتية عنايتهم، خاصة وقد جمعوا المدوّنة اللغوية سماعاً، مدركين صلة الجانب الصوتي بإيضاح المعنى، وعلاقته الوثيقة بالجوانب الصرفية والنحوية والبلاغية، وهي كلها تتفاعل لتوضيح المعنى وتجليته. و نشأت الصوتيات العربية مع نشأة الدراسات القرآنية، بغية المحافظة على كتاب الله من اللحن ،مثلما حدث حين سمع أبو الأسود الدؤلي قراءة أعرابي للآية القرآنية: ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾، بكسر لام (رسوله)، ممّا نتج عنه خطأ دلالي، الأمر الذي أدّى إلى وضع الإعراب.

فالنسق القرآني قائم على الجانب الصوتي الذي يمثل جانبا مهمّا من وجوه الإعجاز اللغوي. وكلّ صوت في هذا النسق وُضِع موضعه الذي لا يمكن أن يوضع فيه غيره.

وقد ينتج إيقاع خاص عن قصر الآيات، وآخر عن طولها، كما قد تتلوّن بالحركات المتتالية أو المدود، وقد تتأثر بالإدغام وأيضا بمخارج الأصوات وصفاتها، وذلك وفق الموضوعات والأغراض الدلالية الخاصة بتلك السور.

ويتضح هذا الأمر بالدراسة الصوتية للنص القرآني من جوانب عدّة، من جانب النغم الإيقاعي، أو من جانب صفات الأصوات، وعدد المقاطع، وتنوّع الفواصل، وغيرها.

بداية يعرّف الإيقاع بأنّه : « فعل يكيل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة متعادلة»[7]، وجاء في معجم الوسيط: « الإيقاع اتّفاق الأصوات وتوقيعها في الغناء»[8]. وللإيقاع قيمة جمالية، وتأثيرية، لما له من إيحائية دلالية، ولما يحدثه من شعور في نفس المتلقي.

ومن مظاهره وجود نسق صوتي معيّن، يستغرق السورة، أو آيات منها، محدثا نغما خاصا تستحسنه النفس، وترتاح له، بل وقد تهتز له المشاعر ويؤخذ بالألباب. وقد يكون الإيقاع قصيرا وسريع الحركة، منطلقا من نبر قويّ من مثل ما نجد في سورة الإخلاص: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)**اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4) ﴾

فالقاف شديدة مجهورة، مخرجها من أقصى اللسان، ممّا يلي الحلق، تتناسب ومعاني الكلمات التي ترد فيها، فيكون الإيحائي الصوتي إلى الشدة والقوة واضحا في مثل: القارعة، الحق، المتلقيان، مقتدر. وشدّة صوت القاف، وقوّة الضمّة، في فعل الأمر (قُلْ) الموجّه إلى الرسول ﷺ ليبلّغ عنه ﷻ صفاته أضفت على فاتحة السورة نبرا حادّا، يناسب مقام الردّ على المشركين الذين يسألون عن صفات الله تكذيبا وتعجيزا للرسول الكريم ﷺ.

والافتِتاح بالأمر بالقول يزيد العنايَة بما بعْد فِعْل القول. وضمير (هو) ضمير الشأن يفيد الاهتِمام بالجملة التي بعدَه، ويلفت انتباه السائلين إلى ما سيأتي في الردّ عليهم.

ثمّ تأتي العبارات قصيرة، سريعة، متتابعة، دون روابطة ظاهرة، مع اعتماد التوازي بين (الله أحد) و(الله الصمد)، مع وجود النبر على اسم الجلالة، وعلى صوت الصاد في (الصمد)، علما أنّ الصاد من الحروف الصفيرية، مثله مثل السين والزاي. وكلمة (الصمد) تدلّ على الكامل في صفاته، والسالم من العيوب، وهو« الذي يُصمد إليه في الأمور، أي يُقصد، ويُعتمد »[9].والدال حرف شديد مجهور ، وهو من حروف القلقلة، ممّا يؤكد هذا الإيقاع .ويتبع الخطاب بجمل فعلية تعتمد مطلق النفي المكرّر (لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)، فلا مجال للكلام المطوّل، ولا للشرح والتفسير، وإنّما المقام للبتّ الصريح، والكلام الشامل الجامع .ولذا كانت مقاطع السورة قصيرة، معتمدة الصامت فالصائت القصير(ص ح) ، وغابت المدود إلا في اسم الجلالة، الذي

يستوقفنا للتخصيص والتنبيه بأنّه المعني بتلك الصفات دون غيره، وتعدّ المقاطع وخصائصها من أهمّ مكوّنات الإيقاع القرآني . وجنحت الفاصلة إلى الوقوف على الساكن، مما زاد الجوّ رهبة وجدّية.

ومقابل هذا الإيقاع الحادّ والسريع، نلتفت إلى الإيقاع البطيء، الذي يشيع جوّ الاسترخاء والهدوء والسكينة، من مثل ما نجد في سورة الضحى، التي نزلت لتنصر الرسول الكريم ﷺ، وتطمئنه، وتشدّ من عضده حين قال المشركون له بأنّ الله قلاك، حين تأخر عنه الوحي فترة من الزمن.

﴿**وَالضُّحَىٰ (1)** وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(11) ﴾

فالمدود هنا ظاهرة شائعة، تبطئ الحركة الإيقاعية، (الضحى، سجى، قلى، الآخرة، الأولى، يعطيك، ترضى..) والفاصلة مرتكزة على المدّ بألف مقصورة. فالوقوف بالسكون على الألف المقصورة اللينة بعد فتحة مبسوطة يضفي على الخطاب جو الترخيم والهدوء. وتمثل التلوين الإيقاعي بعد الفتحة، والكسرة، دون الضمة، وهما حركتان خفيفتان منفتحتان. والأصوات في غالبها مهموسة، لينة (الحاء ، والفاء، والسين، والكاف، والهاء...) مناسبة لجوّ الراحة والسكينة، والاطمئنان لأنّ الصوت المهموس يتصف بالخفوت، فلا تهتزّ له الأوتار الصوتية. وعلى المستوى الإفرادي، تتابعت مجموعة من الألفاظ الرقيقة العذبة

(يعطيك، ترضى، آوى، هدى، أغنى) لتزيد جوّ الطمأنينة تأكيدا. ومستهلّ السورة قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من ضياء ونور، وقسم بما يقابله من ليل وظلام حالك، فلنتصوّر ذلك الحديث الرائع الذي يوجهه الله ﷻ إلى رسوله الكريم ﷺ ليطمئنه ويخبره بأنه لم يتركه، ولم يبغضه، ويعده بأنه سوف يعطيه من أنواع النعم في الآخرة، إرضاء له. ما أجمل هذا الخطاب، وما أرقه.وتجسّد نظام الإيقاع في وحدة الفاصلة، وتقارب المقاطع، وتوازي التراكيب، وتساويها. فالفاصلة حركة ممدودة بالفتحة، وهي حركة منبسطة تلائم الجوّ العام للسورة، والجمل متساوية الطول، متوازية التركيب (ما ودعك ربك/ وما قلى ، والأصل قلاك) ، والمقاطع متنوعة بين المقطع القصير، والمقطع الطويل، المعتمد على صامت وصائت طويل (ص ح ح) وهي مقاطع مناسبة لجوّ الترنم واللين، و تزيده سكينة وراحة.

ثم يذكر الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ بنعمه عليه، فيسأله: ألم يجدك من قبل يتيما، فآواك ، ووجدك ضالا، فهداك سواء السبيل؟ ووجدك فقيرا، فأغناك ؟

واتسم الإيقاع هنا بالتنغيم الاستفهامي، وهو استفهام أزال النفي حدّته، فكان هادئا لطيفا، واستغرق المد فواصل هذه الآيات، ممّا شكل اتساقا وانسجاما مع الآيات السابقة.

وينتقل الخطاب القرآني بعدها إلى بعض التعليمات، والأوامر : فأما اليتيم فتجنّب الإساءة إليه، وأما السائل فلا تزجره،وأما نعمة ربك فتحدث بها.

فالخطاب هنا، أوامر ونواه، ولكنّها ليست حادة، بل تتابعت عقب الآيات السابقة ضمن وتيرة مستمرة هادئة، مع ملاحظة استغراق الهمس واللين لأصوات الآيات جميعها، وكذا نوع المقاطع.

ومن مقابلة السورتين السابقتين،سورة الإخلاص أوّلا ثمّ سورة الضحى، نستنتج أنّ للجانب الصوتي إيحاء دلالي واضح، يرتكز على الإيقاع بخصائصه، ومكوّناته من نبر وتنغيم، ومقاطع وفواصل، بما يتلاءم وموضوع الآيات، وقصرها أو طولها. وهي كلها مؤثرات صوتية تربط بين أجزاء النص القرآني في تناغم وتآلف، مشيعة إيحاءات دلالية تحيل على موضع السورة، صانعة جوا موسيقيا عاما يقرع الأذن فتتأثر به النفس. وإعجاز القرآن يبرز في ذلك التآلف بين الأصوات، وتنوّع حركاتها، وتفاوت المقاطع وتقاربها .

ويظهر الإعجاز الصوتي انطلاقا من **فواتح السور**، فبعد اللازمة الممثلة في البسملة، باستثناء سورة التوبة، تستفتح كثير من السور بحروف المعجم، من مثل: ﴿الم﴾، ﴿كهيعص﴾، ﴿الر﴾، وإختلف العلماء في تفسير هذه الفواتح، وبيانها، وكان من أكثرها دورانا لديهم رأي الباقلاني القائل: « إنّ الحروف التي بُنيَ عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السُّوَر التي افتُتح فيها بذكر الحروف ثَمان وعشرون سورة. وجملة ما ذُكر من هذه الحروف في أوائل السُّوَر من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، ليدلَّ بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم »[10].

فالحروف هي نفسها، واللغة مألوفة ، تعرفها العامة قبل الخاصة، ورغم ذلك فإنّ النص القرآني معجز، وإعجازه ثابت مستمرّ مع مرّ العصور. ونجد التفسير نفسه لافتتاح رُبع سُوَر القرآن بحروف الهجاء عند السيد قطب إذ يقول أنّها:« إشارةٌ للتنبيه إلى أنّ هذا الكتاب مؤلَّف من جِنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطَبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يُمكن أن يصوغوا من تلك الحروف مثله»[11].

ويذهب الزركشي أبعد في تحليله لفواتح السور، وتأويله لجانبها الصوتي فيقول: « الألف إذا بُدِئَ بها أوّلاً كانت همزةً، وهي أوّل المخارج من أقصَى الصدر، واللاّم من وسط مخارج الحروف، وهي أشدّ الحروف اعتماداً على اللِّسان، والميم آخِر الحروف ومخرجها من الفم. وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف؛ أعني: الحلق واللسان والشفتين، وترتّبت في التنزيل من البداية، إلى الوسط، إلى النهاية...وكلّ سورة استُفتِحَت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسّطه، مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التّوسُّط بين البداية من الشرائع والأوامر. فتأمّلْ ذلك في سورة البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم »[12].

والملاحظ أنّ وقع القرآن في النفس يختلف باختلاف السور وأصواتها، ويتنوّع بتنوّع فواصلها وإيقاعها، ويكون تأثيرها وفق موضوعاتها ودلالاتها . فقد نبكي حين سماعه، وقد نتفكر ونتدبّر، كما قد نشعر بالخوف والرهبة، تبعا للإيقاع

الهادئ ، أو الصوت الشديد القوي. وقد يتلوّن الطابع الإيقاعي بصُورٍ شتى في السورة الواحدة، وفق ما تقتضيه الموضوعات فيها.

وتأسيساً على هذا الأثر المتغيّر للإيقاع القرآني ، فإنّنا نجد للصوت اللغوي دوراً لا يخفى في تلوينه، وطبعه بطابعه، المهموس أو المجهور، اللين أو الشديد، القوي أو الضعيف. ولنقتصر على أمثلة ترتكز على إيحاءات صوت حرف **الصاد.**

هو من الحروف الصفيرية، مثل السين والزاي. لذا كان مناسباً لِمحاكاة الأصوات الطبيعية. يقول الدكتور حسن عباس: «ولقد مَنَحَتْه هذه الخصائص الصوتية شخصيةً فذَّةً، طغى بها على معاني معظم الحروف، في الألفاظ التي تَصَدَّرَها، لِيُعطيَها من نقاء صوته صفاءَ صورةٍ وذكاءَ معنًى، ومن صلابته شدَّةً وقوةً وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادةٌ صوتيةٌ نقيّة، ماكان أصلَحها لِمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة »[13].

والمعاني التي تَتَناسب وخصائص هذا الصوت كثيرة، وغالبا ما تتصل بالإيحاءات الصوتية، مثل : القصص، الوصية، الصيحة، فصل الخطاب، التخاصم، عصيت، تختصمون، صعق،، إلخ. ومن ذلك ما ورد في الآيات الكريمة الآتية:

- في قوله تعالى: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ**

الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة/19-20] نجد الكلمات:

- صمّ، وهي تدلّ على فقدان الصوت.
- صيّب، و«الصيب على فيعل من صاب يصوب ، وأصله صَيوِبْ ، لكن استقبلتها ياء ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمتا ، كما قيل : سيد من ساد يسود ، وجيد من جاد يجود ، قياساً مطرداً. والصيب المطر. وكل نازل من علو الى أسفل يقال فيه صاب يصوب»[14]
- الصواعق ، وهي « جمع صاعقة، ولا شذوذ، والظاهر أنّها في الأصل صفة من الصع ، وهو الصراخ ...والمشهور أنها الرعد الشديد ، معه قطعة من نار لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه »[15]

- في قوله تعالى: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الحجر/94] (اصدع) ورد في شرحها وتفسيرها: «قال الزجاج: أظهرْ ما تؤمر به، أخذ من صديع وهو الصبح، وأصل الصدع الفرق والشق، يقال صدعته فانصدع، اي انشق... قال الفراء: فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك »[16].

- وفي قوله تعالى : ﴿ **وهُمْ يَصْطَرِخُونَ** ﴾ [البقرة/37] والاصطراخ أقوى وأشدّ من الصراخ. ويوحي بالعذاب والألم الشديدين.

- والأمر نفسه في صبر- واصطبر فهذا الأخير أقوى، وأوقع في النفس.

- في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف/4] فالصّفّ المقاتل المتماسك الصامد يشبه البنيان المرصوص، ودلالة الصف والمرصوص كلاهما على معنى الثّبات و الصّمود.

- ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴾ [الحاقة/6]، فكلمة صرصروصف مخصوص بالرّيح المرسلة للعذاب وتدل أيضا على الريح الباردة ،و المدمّرة[17].

أخيرا، تبيّن لنا أنّ القرآن الكريم مجال خصب للدلالة الصوتية، نظرا لما تحمله الأصوات اللغوية من معانٍ وإيحاءات دلالية دقيقة، فهو سبيل إلى المعنى، ومظهر جمالي ذو أثر تصويري وفني بليغ .والنظام الصوتي في القرآن الكريم، من أهمّ مظاهر الإعجاز القرآني فقد ثبت أنه متناغم، متألف العناصر، منسجم الوحدات، متساوي الفواصل، ضمن نسق دقيق يستحوذ على السامع، فيأخذ بقلبه وعقله معاً.

المراجع:

- الإسلام والعرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، 1962م.

– إعجاز القرآن، الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب،تحـ: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط5، 1997م.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، تحـ: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1376هـ - 1957 م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان.

- التبيان، الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق :تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط1، 1409هـ.

-خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م.

- رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي، ترجمة: عبدالستار فتح الله سعيد، المكتب المصري الحديث، طبعة 2001م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للسيد محمود الألوسي البغدادي، صبط وتصحيح: علي عبد الباري طه، دار الكتب العلمية

- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط الأولى - 1414 هـ

–في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق،القاهرة.

- صحيح البخاري .

- محمد رسول الله، اتيين دينيه وسليمان بن إبراهيم، ترجمة: عبدالحليم محمود ومحمد عبدالحليم، مكتبة الإيمان للنشر والطبع والتوزيع، 2005م.

- لسان العرب : ابن منظور .

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة العلمية، ط3.

- المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تح: حسن السندوسي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط1، 1347هـ/1929م.

- الموسوعة في صحيح السيرة النبوية (العهد المكي)، محمد بن إلياس الفالوذه أبو إبراهيم، مطابع الصفا – مكة، ط1، 1423.

[1] هي باحثة ومفكرة أميركية، ولدت عام 1945م، اعتنقت الإسلام سنة 1980م

[2] عرفات كامل العشي، رجال ونساء أسلموا، ترجمة: عبدالستار فتح الله سعيد، المكتب المصري الحديث، طبعة 2001م، ج8،ص 109.

[3] اتيين دينيه وسليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة: عبدالحليم محمود ومحمد عبدالحليم، مكتبة الإيمان للنشر والطبع والتوزيع، 2005م،ص 120.

[4] الإسلام والعرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، 1962م، ص:296-297.

[5] الموسوعة في صحيح السيرة النبوية (العهد المكي)، محمد بن إلياس الفالوذه أبو إبراهيم، مطابع الصفا – مكة، ط1، 1423، ج1/ ص 408.

[6] صحيح البخاري، كتَاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب الْبُكَاءِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، رقم الحديث: 4692.

[7] المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تح: حسن السندوسي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط1، 1347هـ/1929م، ص310.

[8] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة العلمية، ط3، ج2، مادة (و ق ع)، ص 1093.

[9] لسان العرب، ابن منظور، مادة (ق ص د).

[10] إعجاز القرآن، الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب،تحـ: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط5، 1997م، ص 36.

[11] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق،القاهرة، ج1/ ص 38.

[12] البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، تحـ: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1376هـ - 1957 م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان، ص 168.

[13] خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م، ص 149.

[14] التبيان، الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق :تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط1، 1409هـ ، ج1، ص 91.

[15] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للسيد محمود الألوسي البغدادي، صبط وتصحيح: علي عبد الباري طه، دار الكتب العلمية، ص 176

[16] فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط الأولى - 1414 هـ، ج1، ص 148.

[17] لسان العرب : ابن منظور ، ج7/ص351. مادة (صرر).